# لماذا اهتم علماء الاستشراق بالمخطوطات العربية...؟

مصطفى نصر المسلاتي

قبل أن أحاول وضع ملامح أولية للإجابة على السؤال المطروح، ولا أقول الإجابة المطلوبة، لأن هذا الأمر يحتاج إلى جهد كبير لا يمكن، بحال، أن تفيه حقه مقالة سيّارة في مجلة ليست متخصصة في مثل هذه الأمور.. يحق لنا أن نتذكر رأي «بلفور» في محاضرة ألقاها بمجلس العموم البريطاني سنة 1910 - وبلفور هذا يعتبر بحق نموذجاً لعقلية الأوروبي الذي ينظر إلى الشرق - كموضوع - اتجاه الذات القوية المسيطرة التي تؤثر في هذا الموضوع وتتحكم في مصيره واتجاهاته وتضعه على محك التجربة في مختبر العقل الاستعماري الأوروبي الذي يهمه الشرق - ذلكم الشرق المستكين الخاضع للتجربة وتمارس عليه الفوقية. وسبب ذلك أن بلفور النموذج «يربط بين المعرفة والقوة». «فالمعرفة تمنح القوة ومزيداً من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة والمعرفة في نظره تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها».

وعلى هذا الأساس يكون في حكم المؤكد أن أوروبا كانت تنظر إلى الشرق - وأقصد بالشرق هنا مساحة الأرض العربية - نظرة الإنسان المغامر الذي يبحث عن ميدان أو دكان للتجارب الاستثنائية.

فالشرق رغم أن تسميته هذه جاءت كنتاج أو فهم غربي ظل صورة خيالية خلابة تحفها الأساطير والغرابة، وأيضاً يعتبره بعض رواد علوم الاستشراق واجهة حضارية متحدية. لا بد من دراسته وفهمه وتحليل ماضيه وحاضره من أجل السيطرة عليه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.. إن نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وما فيهما من أساطير وقصص للأنبياء والرسل والحواريين كلها كانت تدور حول وفي أماكن تقع في أخطر بقعة من بقاع حضارات العالم القديم، بالإضافة إلى تراث حضاري إنساني بكل مضامينه الفلسفية والعقائدية التي تشكل هي الأخرى جزءاً من ثقافة وحضارة أوروبا المعاصرة، ولقد كانت الأساطير التي تحكي عن هذا الشرق بما فيها من مبالغات وصور خيالية فظيعة تهيب بأولئك المغامرين والرحالة لكي يرتادوا الشرق ليدرسوا حضارته ولينبهوا معظم المخطوطات التي وقعت بين أيديهم - واكب كل ذلك شعور غريب من جانب الأوروبيين هو الشعور «بالفوقية» في مقابل هذا «الشرق» المتدني، بل ربما جسد كل هذا الاتجاه المستشرق (رينان) في تميّزه العرقي أو فوقيّة سلالته.

كان المشروع منذ البداية البحث عن فهم دقيق «للقرآن» ثم تلاه دراسات لنصوص فقهية وأحاديث للنبي محمدﷺ وساهمت دراسات حول القرآن وترجمات ركيكة في تكوين «صورة»

«أولية» مشوهة عن الشرق ـ عن العرب المسلمين بالذات ـ حيث ظلت تلك الصورة الأولية هي الخلفية الثقافية لتوجه فيما بعد دراسات بعض المستشرقين وتغاز إلى جانب الدراسات اللاموضوعية وأصبح فهم «هذا» الشرق يخضع لأحكام مسبقة ونصيّة أي أن هذا الفهم المشوه تجذّر لديهم جميعاً من خلال دراسة النصوص التي استنبطت وأخذت من المخطوطات وغيرها. وإذا كان لأي باحث لا يمكن أن يتجاوز أو يمر مر الكرام على الهدف الاستعماري من مشاريع الاستشراق، فإنه أيضاً لا يمكن تجاوز البدايات الأولى لتشييد تلك المشاريع المغرضة التي تزامنت مع تطلّع الغرب نحو توسيع ميادين الاستعمار والسيطرة على كل الشرق. إذ منذ انعقاد مؤتمر فيينا الكهنوتي سنة (1312 م) نلاحظ أن المشروع الرسمي قد ابتدأ ـ هذا المؤتمر الذي كرس معظم توصياته بإنشاء كراسي الاستاذية للدراسات العربية، والعبرية واليونانية والسريانية وغيرها ـ كل هذا يتطلب جهداً عظيماً في مجال علوم الاستشراق، والبحث عن مصادر المخطوطات والكتب ونشرها بعد شرحها أو تحقيقها وبلورة الآراء والأهداف الموسومة وتمحيصها وترويجها وأعطت للقراء في أوروبا صورة مشوهة تتصف كما قلت بالفطرة الفوقية الاستعلائية التي تعم حضارة الشرق بالتخلف والدونية وساهمت كتابات المستشرقين في تأجيج نار العداء ضد ما هو شرقي وألهبت خيال بعض الأدباء والكتاب في خيال رائع مثل: نرفال وفلوبير وسكوت وربما جوتيه ـ ومن المؤكد أن المتأخرين من علماء الاستشراق قد تبنوا تلاميذ مخلصين في الشرق ووجدوا فيهم خير من «يردّد» اتجاهاتهم وأحكامهم سواء فيما يتعلق بالدين أو السياسة والاجتماع ـ ساعدهم في ذلك شعور بالانبهار الإيديولوجي والتقني الغربي المتفوق ـ حيث تقبل أولئك التلاميذ المخلصون كل شيء واعتبروه علماً مقدساً لا يقبل الشك أو الرفض.

إن المجابهة التاريخية بين الحضارات تقتضي تجهيز الأسلحة لخوض غمار الحروب ولا أخالني أذكّر أن تلك المجابهة التي ابتدأت منذ أول ترجمة أوروبية للقرآن وما تلاها من «قرصنة» وسطو تمثل في استحواذ بعض المستشرقين على كنوز ثمينة كالمخطوطات مروراً بالحروب الصليبية وتأجج نار الكراهية في الأوساط الجاهلة في أوروبا لكل المعرب ولكل ما يمت للإسلام بصلة وما سمي «بتخليص طريق الحاج» وحتى المد الاستعماري الحديث الذي تزامن مع اكتشاف الثروات الطبيعية الموجودة في البلاد العربية كل هذا اقتضى أن يكون «مشروع» المعرفة الأوروبي يقتضي الحصول على كل المعلومات عن الشرق، المخطوطات كانت في البدء تلاها قصص الرحالة الوصفية الذين ارتادوا بلاد العرب كلها بما فيها مغامرات شهدتها الصحاري والقفار. تقارير القناصل منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر وما حصل عليه الجواسيس من معلومات كل ذلك من أجل صياغة هذا الشرق وإعادة تشكيله وفق الرؤى الأوروبية صياغة ورسم حدود جغرافية، تاريخ أعيد صياغته، قضايا أُعيد إحياؤها، علمنة الدين ـ عقلنة قضايا تافهة ومفتعلة، إحياء النعرات العرقية، تضخيم دور التراث وإلهاء ذويه عن قضاياه المعاصرة، التشكيك في الثوابت تحت ستار الجدل العلمي، استخدام المنهج الفيلولوجي الذي يعالج دراسة وأصول الكلمات اللغوية وردها إلى جذور لغوية غربية لتخدم قضايا مفتعلة..

إذاً لا عجب أن المكتبة الإستشراقية التي أسست وفق منهج يخدم مشاريع استعمارية أن تخلق رجالاً صنعتهم تلك المكتبة أمثال: بلفور ـ وكرومر ـ وليوتي ورينان وغيرهم كثير.

إن الدراسات اللاموضوعية ـ وما أكثرها ـ التي شغلت بال المستشرقين تؤكد حقيقة مهمة تبرز من خلال النظرة (الفوقية) للشرق كما أسلفت ـ وهي تبرهن على ذاتها بأنها ـ «خالقة» وباعثة للشرق وسبب من أسباب نهضته ـ فكأن هذا الشرق ـ محارة ـ غريبة منسية بين أمواج بحار متلاطمة ـ فهي ميّتة ـ متكلسة ـ ويد المستشرق هي التي اكتشفتها وأعادت صياغتها بعد أن وضعتها تحفة فريدة من نوعها في متحف التاريخ ـ وهو «المستشرق» الوحيد الذي يتكلم بالنيابة عنها ـ يشرح تاريخها وتكوينها للمتفرجين ـ وهو الذي يعيد صياغة عرضها كما يشاء!! وسلفستر دي ساسي وحده يمكن أن نعتبره نموذجاً لهذا النمط الاستشراقي المتعالي ـ فهو الذي اعتبر أن (الشرق التحفة) شيء يحتاج إلى ترميم. لأنه بمسحه الكبير والشامل لتراث الشرق قد أضاء المصابيح أمام هذا «الكم» الهائل من مختاراته وانتقاءاته ـ لأنه يعتبر أباً للإستشراق الحديث.

كلمة أخيرة نقتبسها من المرحوم العلامة مالك بن نبي حيث قال في هذا المجال «يجب إذاً أن نذكر ولو كلمة عن هذا المفهوم بالنسبة لموضوعنا حيث لا نعتبر إنتاج المستشرقين من زاوية ذاتية أصحابه من ناحية ميزاتهم الفكرية ونواياهم، بل من زاوية من يستخدم انتاجهم لغايات خاصة في عالمنا نفسه لا في عالم بعيد خيالي و.. إن كل فراغ أيديولوجي لا تشغله أفكارنا، لينتظر أفكاراً منافية، معادية لنا...».